جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 43 / آذار 2025

الحقيقة الاصطفائية تنفي بشرية الوحي

Eclectic truth denies the humanity of revelation

زهراء حسين حسون الحسيني
Zahraa Hussein Hassoun Al Husseini
أ.م.د. سعد جاسم لفتة الكعبي
Asst. Prof. Dr. Saad Jassim Lafta Alkaabi

جامعة الكوفة/ كلية الفقه
University of Kufa / College of Jurisprudence

الكلمات المفتاحية: الاصطفاء، بشرية الوحي، الوحي النفسي، النبوغ.

Keywords: selection, human revelation, psychological revelation, genius

الملخص:

عملية الاصطفاء الإلهي ظاهرة ربانية عظيمة، وهي فعل الله تعالى الحكيم؛ وبما انه حكيم فإن أفعاله منزهة عن العبث وان اصطفاءه لبعض مخلوقاته بهبات وامتيازات لعلمه السابق باستحقاقهم لحمل الرسالة، بوجود صفات غير متوفرة في غيرهم جعلتهم موضع تكريم وتزكية فيكون معهم باللطف فعملية الاصطفاء ساعدت على طرد أي توهم يوجب الطمع بأمر الرسالة وحصرت المقام بصاحب الأهلية واللياقة لتلقي الوحي إلى جانب المؤهلات الإلهية وهذا لا يعلمه علم اليقين الا الله تعالى فهو يصطفي من يشاء وبما ان النبوة رحمة ولطف للناس جميعا، قضت الحكمة الإلهية ظهورها في زمن ومكان مخصوص، فالوحي أمر عظيم فهو أجدر ان يختار ويجتبي له بشرا من خيرة الناس، فهل يجعل لأحد من خلقه كائناً من يكون أثرا في توجيه الوحي أو هيمنة عليه كما يدعي أصحاب التجربة النبوية من أن الوحي خاضع للنبي.

Abstract:

The process of divine selection is a great divine phenomenon, and it is the act of God Almighty, the Wise; And since he is wise, his actions are beyond tampering, and that he chooses some of his creatures with gifts and privileges, because he previously knew their entitlement to carry the message. Revelation besides divine qualifications and this does not

Only God Almighty knows him, for He chooses whom He wills, and since prophecy is a mercy and kindness to all people, the divine wisdom made its appearance in a specific time and place. In directing the revelation or dominating it, as the owners of the prophetic experience claim that the revelation is subject to the prophet.

مقدمة

إن عملية الاصطفاء الإلهي ظاهرة وسنة ربانية عظيمة، فهي فعل الله تعالى الحكيم الصانع والذي ثبت في القرآن الكريم والروايات الشريفة، وبما أن الله حكيم فإن أفعاله منزهة عن العبث واللهو، فإن اصطفاء الله تعالى لبعض مخلوقاته بأنواع الهبات والامتيازات لحكمة ربانية عظيمة وسامية، ولعلمه السابق باستعداد من يصطفيه لحمل رسالته، حيث وجد فيه صفات غير متوفرة في غيره، جعلته موضع تزكية وتكريم منه سبحانه فيكون معه بالعلم واللطف والتأييد ليكون مؤهلاً لحمل الرسالة الإلهية ودليل اقتداء، ومن خلال ذلك تدفع بشرية الوحي سواء من قال بالتكذيب أو من عدها تجربة بشرية.

المبحث الأول

الحقيقة الاصطفائية تدفع شبهات التكذيب

توطئة

تعتمد عملية الاصطفاء والتي هي اختيار الاصفى واستخلاص وانتقاء الصفوة من خلقه بما تتميز به من فضائل، على مرحلتين، مرحلة تعتمد على المصطفى وهو النبي، ومرحلة تعتمد على المصطفي، وهو الله تعالى، فالمرحلة الاولى هي اتصاف المصطفى بمؤهلات ذاتية.

ومادام الله الحكيم قد اصطفى جملة من خلقه لإداء مهمات إلهية غاية في الأهمية والدقة فلا بد أن يكون اصطفاؤه لهم ناتجاً عن توفر خصائص ومميزات لا تتوفر في غيرهم، وهذه الخصائص لابد أن تكون نقية من شائبة الجبر وإلا لم تمثل حسنة وميزة لهم.

وقد نص القرآن الكريم والسنة المعتبرة على العديد من الصفات الأخلاقية والعلمية للأنبياء (عليهم السلام) ميزتهم بشكل كبير عن المجتمع الذي عاشوا فيه بحيث مثلت ظاهرة ملفتة وعلامة بارزة في مجتمعاتهم.

بل يمكن تعميم هذه النتيجة لكل الأنبياء حتى الذين لم يذكروا في القرآن الكريم والسنة المعتبرة لأننا نستبعد وجود علة في عرض هذه الصفات وإلا لبينتها النصوص المقدسة. ومن هذه الصفات، الاستعداد الذاتي، المسارعة في الخيرات، الصبر، الصدق، الامانة وغيرها

نعم هناك علة أخرى للاصطفاء تمثل المرحلة اللاحقة لعلية الخصائص الذاتية وتلك العلة هي السنن الإلهية التي تحف بالمصطفى ومن دونها لا يمكنه تحمل الرسالة الإلهية.حيث تمثل المرحلة الثانية للاصطفاء الالهي، وبعد اكتمال عملية الاصطفاء نستطيع ابطال شبهات التكذيب. حيث تشترك شبهات التكذيب جميعا في كونها تجعل من النبي – حاشاه – إما مريضا مختلا أو مجنوناً أو منحلا أو سارقا أوشك بأن ما يتلقاه وساوس شيطانية.

ومن خلال هذه المسيرة للاصطفاء نخلص إلى عدة نقاط تدفع وبشكل قطعي كل تلك الشبهات، ومن هذه النقاط :

اولا: النبي (ص) كان يتميز بأعلى مكارم الأخلاق قبل دعوى النبوة وبعدها لم يتغير سلوكه وخلقه الحسن والذي لا ينسجم مع دعوى المرض والاعتلال والجنون والتأثر بالشيطان واتباعه.

ثانيا:لم يسجل عليه المجتمع الذي عاش فيه أي سلوك يتنافى مع المروءة فضلا عن المعصية فكيف يكون كاذباً أو متلبسا بالشيطان، وهذا ما يطلق عليه (العصمة).

ثالثًا :لو كان الوحي النبوي مسألة مختلقة لكانت دعوة ضلال بالتالي لابد من أن يؤدي النبي على وفق هذه الدعوى الى إضلال الناس ولكننا نجد ان دعوى النبي (ص) وما آلت اليه الامور والأحداث التي رسمت الهداية الكبرى للبشرية وصنعت حضارة أخلاقية عظيمة.

رابعاً :إن المعاجز التي ظهرت على يد الأنبياء تدفع هذه الشبهة بكل مصاديقها، فكيف للمجنون أو المريض أو من تلبس الشيطان به أن يأتي بخوارق الطبيعة ؟

خامسا: –يلاحظ ان المريض، بالصرع لا يتذكر شيئاً من حالته، وأن صرع الفص الصدغي يفضي، إلى النسيان وفق الذاكرة أما النبي فإنه يخبر بما نزل من الوحي وينقله الى الناس دون زيادة ولا نقصان. وكان لا ينطق بشيء حتى يتم الوحي، و مواضع الهذيان الهستيري لا تخرج الا من تصورات وهمية تناسب حالة المريض كتخيله روح شريرة تؤذيه أو تريد قتله، ولم يشاهد عادة هذياناً هستيرياً موضوعه الفضيلة والهداية

ومن أعراضه شذوذ في الخلق وضيق واضطرابات في التنفس. وقد يصل بصاحبه إلى شلل موضعي ثم إلى تشنج ثم إلى إغماء ثم إلى هذيان مصحوب بتشنج وحركة في الأطراف وقفز من مكان إلى مكان. وقد يوهم المصاب أنه يرى أشباحا تهدده أو أنه يسمع أصواتا تخاطبه على حين أنه لا وجود لشيء من ذلك كله في الواقع[1].

وهذه الأعراض لا تنطبق عليها أعراض الصرع، بحيث تصدر منه حركات غير متوازنة، لا تتناسب مع هيبة النبي و مقامه، بل على العكس فإنه يتلقى الوحي، ثم يقوم بتفسيره وشرحه بكل سكينة واطمئنان، و يدعوا الناس إلى التزام مافيه من أوامر[2].

وكل من عاصر النبي (ص) ولمح تاريخ حياته لم يجد ما يدعو لذلك؛ يقول الفيلسوف الأمريكي "ليس في تاريخ محمد ما يدل على انحطاط قوة العقل التي يؤدي إليها الصرع عادة بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء ويزداد قدرة على التفكير، وثقة بالنفس وقوة في الجسم والزعامة كلما تقدمت به السن حتى بلغ الستين من عمره"[3].

سادسا–إن تفسير الوحي بهذه العناوين لا يقبل بأي حال من الأحوال؛ لأنه ليس عليه دليل أو شاهد أن النبي (ص) كان يعاني من مرض نفسي او مرض عضال فإن الله سبحانه حينما يختار نبيا أو شخصا لمهمة معينة فضلا عن أن تكون هداية البشر من الضلال لابد لها من شروط ومواصفات منها السلامة النفسية و الجسدية، قال تعالى "قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" البقرة 247، يتضح من هذه الآية أن الاصطفاء الإلهي للبشر محدد له شرطان أو موجبان هما البسطة في العلم أي الاتساع و القدرة على الإدراك والمعرفة وبسطة في الجسم أي صحة أفضل، أي يكون لصاحب القدرات العقلية والجسمية، فأين الجنون و الهلوسة فيمن اختاره الله تعالى ليكون سفيرا لعباده، فالتشرف بهذه المهمة ليست باباً مفتوحا للجميع فضلا عن أن يكون مريضا أو مجنونا، بل هي اصطفاء إلهي يختص به من يشاء من عباده، قال تعالى: ((ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ))[4].

وقد ورد في الروايات عن الكُليني بسندِه عَن هشامٍ بنِ سالم، عن أبي عبدِ اللهِ (ع) قال :" إنَّ الأمرَ في الكبيرِ ما لم تكُن فيه عاهةٌ"[5].

وقالَ المازندرانيّ : (ما لم تكُن فيه عاهةٌ) أي آفةٌ بدنيّةٌ أو عقليّةٌ، فإنّ منصبَ الإمامةِ يتنزّهُ عنِ النّقصِ في الأعضاءِ والعقول"[6].

وأن يكون منزها عن الأمراض المنفرة نحو.. سلس الريح و الجذام و البرص، وعن كثير من المباحات الصارفة عن القبول منه القادحة في تعظيمه نحو الأكل على الطريق وغير ذلك لأن ذلك كله مما ينفر عنه فيكون منافياً للغرض من البعثة، فكيف بمن يكون مصاباً بالصرع أو الهوس وغيرها[7].

سابعاً: إن الأعراض التي كانت تشاهد على النبي (ﷺ) هي أثناء نزول الوحي المباشر، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) رواية تبين أن هذه الحالة من العرق واحمرار الوجه تحصل أثناء نزول الوحي، "عن عبيد بن زرارة، عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول الله (ﷺ) إذا نزل عليه الوحي؟ قال: فقال ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، ذاك إذا تجلى الله له"[8].

ثامناً: إن المصاب بالأمراض النفسية والصرع والهوس لا يختاره الله تعالى ولا يجتبيه لقيادة قلوب الناس وعقولهم وأرواحهم ويسوقهم لما فيه سعادتهم بل لا تتناسب مع جاء به من كتاب تحدى فيه الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

تاسعاً: إن الشخص الذي اختاره الله تعالى وتولاه برعاية خاصة منذ ولادته ولا اقصد ان حياته كانت رفاه في رفاه بل حياته الملكوتية وارتباطه بعالم يشعر فيه بالصفاء علاوة على ذلك سيرة النبي "فالمعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح والأدلة القاطعة أنه كان وديعا صبورا حليما بل كان عظيم الصبر واسع الحلم فسيح الصدر حتى إنه وسع الناس جميعا ببسطه وخلقه. وكان شجاعا مقداما سليم الجسم صحيح البدن، حتى إنه صارع ركانة المشهور بشجاعته فصرعه وكان يثبت في الميدان حين يفر الشجعان ويفزع الخلق ويشتد الأمر"[9].

فليس هناك ما يدل على أنه تصرف في ثانية من حياته خلاف الإنسان صاحب الحكمة والعقل السليم الّذي يريد أن يركّز عقول النّاس على الحقّ، وحياتهم على العدل، وعلاقتهم وسلوكهم على خطِّ الاستقامة؛ تلك مسؤوليَّته الّتي حمّله الله سبحانه وتعالى إيّاها. وفي نفي هذه الشبهة وعلى لسان المستشرقين أنفسهم يقول المستشرق الألماني ماكس مِيِّرْهُوف (مايرهوف) توفي سنة (1874–1945): "لقد أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلاً مصاباً بمرض عصبي، ولكن تأريخ حياته من أوله إلى آخره ليس فيه شيء يدل على هذا، كما أن ما جاء به فيما بعد من أمور التشريع والادارة يناقض هذا القول"[10].

عاشراً: إن الوحي المعجز هبة من مواهب الحق سبحانه تخرج عن حدود العادة والأسباب الطبيعية والاختراعات المحسوسة والنتائج المألوفة. أما السحر وأمثاله فإنها فنون شريرة غير صالحة، بكيفية وأدوات يعرفها المتخصص المتمرس ويصل إلى نتائجها كل من تضلع بها. ولهذا كان أول من آمن بموسى هم السحرة أنفسهم لأنهم أعلم بهذا الفرق الواضح والاختلاف الكبير بينهما[11].

احد عشر: يبدو ان بعض القراءات لحالة النبي عند نزول الوحي فيها مبالغة، قد تشير الى نوع من الحلول. وعلى الرغم من عدم معرفة حقيقة الوحي لغير النبي المصطفى نفسه فإن من الطبيعي لحالات التجرد ما يتصوره الانسان المادي بالنعاس او الاغماء او الذهول عن الحالة العادية في نظره مع انه وعي كامل في حقيقته في نظر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يفكر في اصلاح احوال الناس، وان كان الانسان العادي يتصوره كما يريد، ويمكن التوفيق بين القول بالأغماء والارباك وبين الوعي الكامل لحقيقة الوحي للظروف والنتائج المترتبة لنص الوحي ؛لذلك أثر في الناس هذا التأثير العظيم، وكذلك رواية صلصة الجرس وغيرها مما تم ذكره، فان ذلك ليس كلاما مفهوما حتى وحيا، نعم قد يكون ذلك مقدمة للوحي و ليس الوحي نفسه و بالجملة رصانة الوحي وحكمته بالتشريع يدل على وعي كامل من دون اي اغماء او ذهول وما ذكره الصحابة لعله كان تفسيرا بتصورات

انفسهم حيث لم يقع لأحد معرفة الوحي سوى النبي نفسه ومن لا تجربة له بذلك يفسرها كما يتخيل ويرى ولا يمكن هذا الجزع والهلع على اثر رؤية حقيقة ثابتة[12]، و ما الوحي للأنبياء عليهم السلام الا كرؤية الانسان العادي للأمور المادية فانه يجزع من حقائق الحياة المؤلمة لضعفه بخلاف النبي الذي اصطفاه الله فهو ثابت الفؤاد ويواجه الحقائق بوعي كامل.

المبحث الثاني

الحقيقة الاصطفائية تنفي شبهة النبوغ العقلي والوحي النفسي

المطلب الاول

الرد على شبهة النبوغ العقلي

توطئة

إن ظهور النزعة المادية وظهور العلوم الجديدة أدى الى إنكار كافة أنواع الارتباط بالغيب؛ وعلى هذا الاساس عمد بعض علماء الغرب وتلقفها المسلمون منهم، الى القول إن الأنبياء كانوا عباقرة وإنهم ادعوا النبوة والارتباط بالوحي كذباً ؛من اجل الوصول الى أهدافهم في كسب الناس؛ ولذا فان ما يسمونه وحياً الهياً لم يكن سوى نبوغ عقلي بشري

وإن هذه الشبهة مردودة وغير تامة؛ لان العباقرة على الرغم من شبههم بالأنبياء من جهة الامتياز والقدرة الخارقة في الذكاء والتفوق على سائر الناس، إلا أن بينهم وبين الأنبياء اختلافات اساسية ترد وتنتقض بها فرضية تحليل الوحي على أنه نوع من العبقرية ومن هذه الاختلافات:

اولاً: إن الأنبياء يمتازون بصفة العصمة العلمية والعملية، في حين يفتقر اليها عباقرة البشر؛ فهؤلاء ليس مبرئين عن الخطأ، فأفكارهم عرضة للتبديل والتغيير، بل والتناقض أحيانا، في حين لا نجد ذلك عند الأنبياء سواء في العقائد او في الشرائع، ولا نرى اختلافا بين تعاليم النبي الواحد، قال تعالى: ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا))[13].

حيث تقدم في بحث الاصطفاء إن الأنبياء اختارهم الله سبحانه نتيجة علمه بوجود الاستعداد والقابليات والارضيات الصالحة لإفاضة العصمة عليهم وانتخابهم لذلك الفيض العظيم.

ثانياً: لقد صرح الأنبياء أن ما طرحوه من حقائق ووسائل وأوامر لهداية الناس، ليس نابعا من أفكارهم وعبقريتهم؛ وإنما صادر من عالم الغيب، والقرآن يصرح بنفي كونه من النبي أو أي إنسان مهما بلغ من نبوغ، وذلك في آيات التحدي قال تعالى: ((قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا))[14].

ثالثاً: إن الأنبياء يحصلون على المعارف و الحقائق دفعة واحدة ومن دون مقدمات أو طي مراحل تدريسية فقد عرف القرآن النبي (ص) بأنه لم يدرس شيئاً أو يأخذ علوما سابقة[15]

قال تعالى: ((ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلاَ الإِيمانُ))[16]، أي قبل أن ينزل الوحي وتكون لديك معرفة عن طريقه، لم تكن عارفاً به وملتزما بمعارفه بالتفصيل[17] بخلاف العباقرة.

رابعاً: أفكار العباقرة تتطور تحت ظل المجتمعات الراقية، والحضارات الإنسانية المتقدمة، بخلاف المجتمعات المتخلفة فإنها تخمد ذكائهم ونبوغهم.

أما ظروف الأنبياء فقد كانت على عكس من ذلك خصوصا النبي الخاتم (ﷺ) فقد بعث في مجتمع يسوده الظلم والجهل ؛ وعليه فكيف يمكن أن تفسر النبوة الخاتمة بالنبوغ مع هذا الفارق الشاسع في الظروف[18].

خامساً: من أبرز الصفات و المؤهلات التي يتحلى بها الأنبياء هي الصدق والأمانة والتي بموجبها وبضمها إلى غيرها من الموجبات تم اصطفائهم لحمل الوحي، فلو كانت التعاليم و الحقائق والمعارف التي أتوا بها من وحي أفكارهم فلم يوجهون المجتمع بنسبتها إلى الله تعالى فإنه لا يشك أحد بصدقهم وأمانتهم[19].

سادساً: أن ديدن النوابغ العزلة والانزواء عن المجتمع أما الأنبياء فسلوكهم العيش معهم وان لم يكونوا على سيرتهم فكانوا مثالاً للقدوة الحسنة في الصبر والتحمل بما يحملون من مؤهلات تمكنهم من ذلك [20].

سابعاً إن المعارف التي يطرحها العبقري محدودة بينما معارف الأنبياء مطلقة في كل أبعاد الوجود[21].

ثامناً: لا يتطابق تفسير الوحي النبوي بالعبقرية مع مسألة ختم النبوة؛ فإن وجود العباقرة مستمر ولم ينقطع؛ فلا معنى للخاتمية في العبقرية[22].

تاسعاً: لا يمكن تفسير عمق الحقائق والمعارف التي جاء بها الأنبياء، كالإنباء عن الحوادث المستقبلية والتفاصيل الدقيقة عن أحداث الماضي وعالم ما بعد الموت وغيرها من الانباء بالعبقرية البشرية فالنوابغ وان اتصفوا بحدة الذكاء والفطنة فلا يخبرون بالقطع واليقين وبضرس قاطع بما أخبر الأنبياء[23]. وبديهي أن ما أخبر به الأنبياء لا يمكن أن يحصل إلا عن طريق الوحي، والاتصال بعالم الغيب[24].

أضف إلى ذلك فإنه مع الإيمان بأكثر الصفات التي ذكروها للنابغة فهل كل ما في الوحي مما يستنبطه العقل ومما يدركه الوجدان، فالجواب كلا فإن طبيعية المعاني القرآنية الوحيانية ليست مما يدرك بالذكاء والفطنة والفراسة وأنباء الماضي لا سبيل إليها إلا بالتلقي والدراسة والفحص الدقيق. ففي الوحي القرآني الكثير من المعاني النقلية البحتة التي لا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتعليم والتعلم[25] كجملة من القصص التي ذكرت في القرآن الكريم.

عاشراً: إن علماء النفس الذين بحثوا عن النبوغ اكتشفوا بأن هناك عوامل وموجبات اقتضت تفجره حيث توجد استغراقاً في نفس الإنسان وتوقدا في أفكاره، وتَمَيُّزاً في فطنته وذكائه وهي: العشق–سلب الحقوق–الخلوة–الصمت – التربية والتوجيه الابتدائي الذي يحصل عليه الفرد في بداية حياته[26] أما الأنبياء فإنهم بموجب عملية الاصطفاء فهم مهما امتازوا به من مؤهلات لابد من أن ينضم إليها اللطف والتوفيق الخاص وأهمها العصمة التي يفتقر إليها النوابغ.

فإن أصحاب هذه النظرية لم تدرس بالدقة أحوال النوابغ والعلل والمبادئ التي يرتكز عليها النبوغ حتّى تقف على أنّ أحوال الأنبياء على طرف نقيض من أحوال النوابغ؛ فالنبوة تختلف لان هناك مراتب من المعرفة لا تنال بالنبوغ بل بالوحي ويؤهل لها الفرد بعوامل خارجة عن النبوغ يشكل مجموعها ما يصطلح عليه (الاصطفاء).

أحد عشر: بما ان العبقرية كما يعرفها أفلاطون" بأنها حال إلهية مولدة للإلهامات العلوية للبشر ويقرر الفلاسفة أنها حال علوية لا شأن للعقل فيها. ويقول الطبيعيون: إنها هبة من الطبيعة نفسها لا تحصلها دراسة ولا يوجدها تفكير "[27].

فنبوغ الموهوبين وما يكون منهم من آثار له وسائل وعوامل ثم له أشباه معتادة ونظائر في كل أمة وجيل وفي كل عصر ومصر أما المعجزات فلن تجد لها من وسائل ولا عوامل ولن تستطيع أن تصل إلى أشباه معتادة لها ونظائر [28].

المطلب الثاني

الرد على شبهة الوحي النفسي

توطئة

إن حاصل نظرية الوحي النفسي أن الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج، وان اصحاب هذه النظرية يعدون النبي صادق في أخباره ؛لأنه لم ينوِ الخداع، لكنه مخطئ في اعتقاده، لأنه لم ينزل الوحي عليه بحسب اعتقاده.

ويرد على شبهة وتفسير الوحي النفسي اشكال كونه لا ينسجم مع حقيقة النبي الفعلية المتجلية بالخارج فإن علماء النفس يذكرون أن الشخصية الباطنة والعقل اللاواعي للفرد يتفعل ويبرز اثره في الظروف غير العادية؛ مثل النوم الطبيعي، او المصطنع أو المرض أو الإرهاق الشديد، أو ما شاكل ذلك؛ وليس في الظروف الاعتيادية للحياة والحال ان الأنبياء في حالة النوم لا يتلقون إلا القليل من المعارف الوحيانية، كما أن الوحي في غالب الأحيان كان عندهم في حالة اليقظة؛ فضلا عن كون الانبياء كانوا يتمتعون بسلامة جسمية ونفسية عامة وكانت شخصيتهم الظاهرة وعقلهم الواعي في أتم النشاط والاستعداد. ومما يلاحظ أنه لا تتناسب آراء علماء النفس والأطباء النفسيين مع ما ورد في الروايات من أحوال النبي الأكرم (ﷺ) حين تلقي الوحي فقد ورد فيها ان النبي كان يفقد وعيه عند نزول الوحي وكان يدهش وتعرض عليه حالة كحالة النوم، وعند نزول الوحي كان يشعر بثقل ويسخن جسده الشريف من ثقل مالقي عليه ويعرق[29].

روي عن ابن عباس انه قال :"وَ كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَجَدَ مِنْهُ أَلَماً شَدِيداً وَ يَتَصَدَّعُ رَأْسُهُ وَ يَجِدُ ثِقْلًا[30]".

ومن الشواهد على صحة وجود النفس، وأن للإنسان روحاً مستقلّة هي طريقة التنويم الصناعي أو التنويم المغناطيسي التي ذكرها في كتابه وحضرها الشيخ الزرقاني بنفسه وشهد تفاصيلها بمرأى ومسمع الملأ[31]، وغيرها من الشواهد التي لا تجتمع مع فرضية الشخصية الباطنة وعدّ الوحي غير واقعي وذلك بسبب:

١–ان هذه الحالة لم تكن عامة، بل عند تلقي الوحي بلا وساطة.

٢–لقد ذكر في هذه النظرية أن السبب الداعي لتجلي الشخصية الباطنة هي الأحوال غير الاعتيادية، أي أن الشخص يستقر أولا ثم تنفعل شخصيته الباطنة، بينما حالة الدهشة التي تعترض النبي عن نزول الوحي مباشرة كانت نتيجة نزول الوحي، اي كان ينزل الوحي أولا، ثم تعرض عليه الأحوال غير الاعتيادية.

3–ان الأنبياء على وعي تام باتصالهم بمصدر عالم ومعارفهم منه، سواء كان التلقي مباشراً أو غير مباشر، أما ما ذكره أصحاب نظرية الشخصية الباطنة فأصحاب الحالة لا يعرفون مصدر ما يلهمون به، والشيء الوحيد الذي يعرفونه انه لم يصدر عن عقلهم الواعي وجهاز التفكير.

4–وتشير روايات متواترة قطعية على حضور ملائكة الوحي، وتوسّط جبرئيل فيه، أي أن مصدر الوحي خارجي، وليس من داخلهم. ولازم نظرية الشخصية الباطنة أن يكون الأنبياء أناساً متوهمين وبعيدين عن الواقعية، وهو يتناقض مع الأدلة العقلية على ضرورة النبوة، كما يتعارض مع التقارير التاريخية القطعية حول شخصية الأنبياء الإلهيين، وطريقة تعاملهم مع الصديق والعدو، فالتاريخ يشهد لهم بأنهم أعقل أناس عصرهم[32].

ولقد ذكر أصحاب هذه النظرية ادلة وشواهد للاستدلال على صحة ادعائهم المقدمات التالية:

١–الله سبحانه منزه عن الزمان والمكان؛ وعليه لا يمكن للإنسان الممكن والمادي و المفتقر للمكان أن يستطيع الاتصال مع ذاته المقدسة.

٢–الله سبحانه منزه عن الخطأ، وعليه اذا كان كلام الأنبياء وحيا إلهيا لما أمكن تبرير الخطأ الموجود في كلامهم.

٣–طبقا لهاتين المقدمتين فإن مدعي الوحي الإلهي لم يكن من الله تعالى.

٤– أن روح الإنسان وعاء للمعارف والعلوم التي تظهر في ظروف خاصة.

والنتيجة: أن ما يتصوره الانبياء لم يكن سوى علوم تحصل لديهم نتيجة التأمل، من أجل إنقاذ الناس، فتظهر على ألسنتهم كصدى لما ينطوي في اللاشعور عندهم[33].

ويمكن مناقشة ذلك بأن تنزيه الله تعالى عن التحيز في مكان، لا يكون دليلا ناهضا على التحليل النفسي، لأن الاتصال بالعالم الملكوتي ليس مادياً بل روحانياً وذلك باتصال روح النبي بالله تعالى وملك الوحي وليس هناك خطأ في الوحي بل دل الدليل على أنه معصوم، كما انه لم يقم دليل على أن المعرفة منحصرة بالإدراك الحسي والعقلي والإلهام الباطني[34].

وهذا عينه ما يقتضيه الاصطفاء الإلهي بأن من خصائص الوحي النبوي هو العصمة وليس الاوهام والتأثيرات النفسية في تلقي الوحي وتبليغه.

المبحث الثالث

الاصطفائيّة تنفي التجربة النبوية

بعد ان تكتمل عملية الاصطفاء بمرحلتيها المتمثلة بما يقع على المصطفى من مؤهلات ذاتية، وبما يتحف به من لطف وتوفيق الهي، و نتيجة لذلك يمكن رد شبهة التجربة النبوية من خلال نقاط عدة :

1. إن المصطفى يصل بخصائصه الذاتية إلى مرحلة بشرية تؤهله لمرحلة جديدة يحتاجها لتلقي الوحي ولا يمكن من دونها تحقق هذه النتيجة.

2. إن أصحاب هذا الاتجاه مثل سروش وشبستري يعترفون بالبعد الإلهي مما يعني إيمانهم بحقانية المضمون الديني للوحي والذي يدل على صحة النتائج التي يثبتها النص الوحياني بتعبيرهم.
3. لو قارنا بين النتيجة التي وصل لها أصحاب شبهة التجربة النبوية وبين معطيات النص القرآني نجد تناقضا بينهما، فالنص القرآني يدل على أن المصطفى ومن خلال التربية الإلهية والسنن القرآنية يرتقي لرتبة تلقي الوحي، بينما مضمون نظرية التجربة النبوية هو أن المعنى الإلهي يتجسد في القالب البشري أي أن المضمون السماوي يأخذ قالب البشري، بل ويمكن للبشر الآخرين خوض هذه التجربة وفهمها وصياغتها بشكل جديد مغاير للتجربة الأولى، وبهذا الشكل لا يمكن الجمع بين المضمونين فلا بد من خطأ أحدهما وبعد ثبوت النص الديني بشكل قطعي فلا مجال للالتزام بغيره.
4. إن السنن التي مثلت المرحلة الثانية من قبيل سنة الاصطناع والتيسير إنما تعرفنا عليها من الوحي فكيف يكون معنى بشرياً خاصاً يمكن أن لا يتجدد لشخص آخر يقرأ النص نفسه.
5. يتضح من العديد من فقرات كلام المدعين لبشرية الوحي أن المقصود هو بشرية اللفظ فقط دون المعنى، وهذا معنى صحيح في نفسه وهو ما يمثله الحديث القدسي ولكن لا يعني انكار إلهية النص القرآني خصوصا بعد تصريح القرآن نفسه والنبي (ﷺ).
6. إن اطروحة المدعين لبشرية الوحي تلتقي مع المضامين الفلسفية والعرفانية للوحي وهذه المضامين ليست حجة في نفسها مالم تبلغ القطع وبالتالي هي مضامين ليست ضرورية ولا مبرهن عليها.
7. توجد العديد من الإخبارات الغيبية والمعاني القرآنية لا يمكن قبولها على أنها تجربة بشرية مثل الإخبار عن خاتمية النبوة وحقيقتها وخاتمية التشريع، فهي إما صحيحة أو كاذبة ولا يمكن القول بأنها تصدق بالنسبة لتجربة شخص و لا تصدق بالنسبة لتجربة شخص آخر.
8. هناك العديد من المعلومات العلمية التي أخبر عنها النبي (ﷺ) لا يمكن تفسيرها على أنها تجربته الخاصة لأنها معلومات جغرافية أو فلكية مادية بل تفسر على أساس التمكين الغيبي وهو ما ينسجم مع إلهية الوحي فقط.
9. حمل الرسالة الإلهية مهمة عظيمة ولعلم الحق سبحانه بمن يختار لها من عباده ودوره العظيم في حملها يكشف حيوية هذه المهمة التي يسهم فيها المختار بإبداعه وتفاعله معها قلبا وقالبا وقد ذكر الله (عز وجل) المهمة الرئيسة له وبين دور المصطفى الرئيس وهو التبيين وليس صياغة الألفاظ لما لها من دور خطير يفتح الباب للقول ببشرية الألفاظ.
10. من نتائج القول ببشرية الوحي انتفاء عصمته وبشريته وهدفيته، والتي صرح الله تعالى بها في كتابه وهذا مخالف لضرورة العقل الذي يحكم بوجوب إلقاء الحجة على العباد عن طريق وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهدم لركنية عملية الاصطفاء.
11. إن القول بأبدية العيش في الفضاء الذي عاشه المعاصرون للنبي حتى يحصل ذلك الإيمان الحاصل في ذلك الزمان يعارض دليل عالمية و صلاحية الوحي لكل زمان ومكان.

12. ان الرسالة الإلهية تضمنت كل ما يخدم البشرية بكل ابعادها لذلك خلق البشر مختلفون في قدراتهم العقلية والبدنية والنفسية ويتفاوتون في القابليات، فهناك شخص مؤهل لأن يكون نبياً واخر لا يؤهل، فدعوى الحداثة بعدم تجميد العقل امام تعليمات بشرية انما يكون التجميد عن الطاقة التي يمتلكها النبي المصطفى.

الخاتمة

1- كثير من مقالات الحداثيين الذين تناولوا الوحي تفتقد للموضوعية ومبنية على استبعاد أو تأويل كل ما تدركه عقولهم ولم يجعلوا الميزان الصحيح نصب أعينهم. ومن يظهر لنا علميًّا صارمًا جاريًا وراء التقعيد لعملية الفهم، وبالتالي يبدو وكأنه من أتباع المدرسة العلمية التاريخية، ومرة يظهر لنا من العرفانيين الجدد المركزين على الذوق الكوني، وهذه الحربائية والتلون جعلت من عملهم منقوصًا، وربما لم يؤدِ الثمار المرجوة منه لأنه من الاستحالة بمكان الجمع بين الطرحين.

2- إن الميزان الصحيح لقبول اي عقيدة أو مقالة فلسفية أو عقدية أو فكرية سيبتني على أمرين:

أ: إن يكون الأمر المدعى في دائرة الإمكان العقلي سواء كان بعيدا لا يصدق أو مما اعتاد عليه الذهن، ولا معنى لرفض كل ما كان بعيدا عن العقل مع إمكانه لأنهم سيكونون حينئذٍ كالساخر من تحليق الطائرة قبل الف عام، فكل ممكن عقلا يكون وقوعه وارداً، نعم، نحتاج الى ضم الأمر الآخر إليه لنثبت وقوعه.

ب: بعد أن نفرغ من كونه ممكنا يجب أن يدل دليل مكتمل الأركان على وقوعه أو وجوده.

3- إن القرآن يحث على استنطاقه، ونهى عن الجمود والكون مثل الماء الراكد، والبحث مع تطور فكر الباحث والمفكر لأنها حالة صحية بشرط أن تكون خلاصة فكره موضوعية وعلمية.

4-التفرقة بين المعرفة الدينية والدين، فالمعرفة الدينية قابلة للتطور والتجديد من خلال اكتشاف الآليات والوسائل أما الدين فثابت بقاء الليل والنهار ولقد أعلن الدين الإسلامي عن خلوده، بحلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة.

5-عملية الاصطفاء ساعدت على طرد أي توهم يوجب الطمع بأمر الرسالة وحصرت المقام بصاحب الأهلية واللياقة لتلقي الوحي إلى جانب المؤهلات الإلهية وهذا لايعلمه علم اليقين الا الله تعالى فهو يصطفي من يشاء وبما ان النبوة رحمة ولطف للناس جميعا، قضت الحكمة الإلهية ظهورها في زمن ومكان مخصوص، فالوحي أمر عظيم فهو أجدر ان يختار ويجتبي له بشرا من خيرة الناس، فهل يجعل لأحد من خلقه كائناً من يكون أثرا في توجيه الوحي أو هيمنته عليه كما يدعي أصحاب التجربة النبوية من أن الوحي خاضع للنبي.

6-حقيقة الوحي وما تضمنه من حقائق وأخبار عن الغيب خارجة عن حدود الفكر البشري في زمن النزول، بل يستحيل في كل زمان وهذا ان دل على شيء إنما يدل عن قدرة ربانية حكيمة اصطفائية وضعت قوانين عامة

خالدة للبشرية، تختلف عما تحتويه التجربة البشرية، وهذا يفند ما قاله أصحاب الشبهات بأن القرآن الكريم كتاب عصره.

7-إن الذهن البشري مهما ارتقى علميا يبقى مفتقراً إلى المدد الغيبي أو اللطف الإلهي وهو العصمة وهذا احد الخصائص التي تميز النبي عن العبقري.

الهوامش:

(1) ينظر :روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ط28، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1993.توفي سنة 1980م، ص21. مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، ج1ص81.

(2) ينظر :معرفة الوحي دروس معرفية، مصطفى كريمي، ص103

(3) قصة الحضارة عصر الإيمان، ويل ديورانت، فيلسوف، مؤرخ وكاتب أمريكي، ترجمة محمد بدران، ج2 من المجلد13، ص26.

(4) سورة الأنعام: 124.

(5) الكافي، الكليني، ج1ص351.الفصول المختارة – الشريف المرتضى – الصفحة 312

(6) شرحُ الكافي، المازندراني، ج6ص106.

(7) ينظر :كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، العلامة الحلي، ج1ص350.

(8) بحار الأنوار، المجلسي، ج 18ص 256.

(9) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ج1ص81.

(10) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم و تفسيره – دراسة و نقد، عمر بن إبراهيم رضوان، ج1ص403.

(11) مناهل العرفان، عبدالعظيم الزرقاني، ج1ص76

(12) ينظر: دراسة حول القرآن الكريم، محمد حسين الحسيني الجلالي، ج1ص25

(13)النساء 82. ينظر: الكلام الإسلامي المعاصر، عبدالحسين خسروبناه، ص172.معرفة الوحي دروس معرفية، مصطفى كريمي، ص105-106.

(14) سورة الاسراء:88.

ينظر: القرآن في الإسلام، الطباطبائي، ص80. الكلام الإسلامي المعاصر، عبدالحسين خسروبناه، ص172.

(15) ينظر: معرفة الوحي دروس معرفية، مصطفى كريمي، ص106.

(16) سورة الشورى: 52.

(17) ينظر: الوحي والنبوة في القرآن، جوادي آملي، ص236.

(18) ينظر: مفاهيم القرآن، جعفر السبحاني، ج7 ص97.

(19) ينظر: محاضرات في الإلهيات، جعفر السبحاني، ص270.

(20) مفاهيم القرآن، جعفر السبحاني، ج7 ص 97.

(21) ينظر :معرفة الوحي دروس معرفية، مصطفى كريمي، ص106

(22) ينظر :الكلام الإسلامي المعاصر، عبدالحسين خسروبناه، ص172.

(23) ينظر :محاضرات في الإلهيات، جعفر السبحاني، ص270.

(24) ينظر :البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم الخوئي، ج1ص68.

(25) ينظر:النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز 1377هـ، اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية، قدم له عبد العظيم إبراهيم المطعني، الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة : طبعة مزيدة ومحققة 1426هـ- 2005.

(26) ينظر:الإلهيات على هدى الكتاب والسُّنة والعقل، محمد مكي العاملي، ج3 ص135،

(27) مناهل العرفان في علوم القران، محمد عبد العظيم الزرقاني، ج1ص71.

(28) ينظر:مناهل العرفان في علوم القران، محمد عبد العظيم الزرقاني، ج1ص77.

(29) ينظر الكلام الإسلامي المعاصر، عبدالحسين خسروبناه، ج2ص168.

(30) مناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب، ج1ص44، المتوفى 588هـ2.

(31) ينظر :مناهل العرفان في علوم القران، محمد عبد العظيم الزرقاني، ص67-68.

(32) ينظر:الكلام الإسلامي المعاصر، عبدالحسين خسروبناه، ص169-170.

(33) ينظر:دائرة معارف القرن العشرين، ج10ص719-720.

(34) ينظر:معرفة الوحي دروس معرفية، مصطفى كريمي، ص113.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

(1) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ط28، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1993.توفي سنة 1980م.

(2) قصة الحضارة عصر الإيمان، ويل ديورانت، فيلسوف، مؤرخ وكاتب أمريكي، ترجمة محمد بدران، ج2 من المجلد13.

(3) الفروع من الكافي، ابي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، المتوفى سنة 329، المحقق علي اكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الرابعة، سنة الطبع 1407.الفصول المختارة – الشريف المرتضى –

(4) شرحُ الكافي، المازندراني، شرح أصول الكافي، الكافي الأصول و الروضة لثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني مع شرح الكافي الجامع للمولى محمد صالح المازندراني المتوفى 1081، مع تعاليق الميرزا أبو الحسن الشعراني

(5) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، العلامة الحلي،.

(7) بحار الأنوار، ابو عبدالله محمد بن باقر بن محمد بن محمد بن مقصود علي المجلسي، متوفى 1110.

(8) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني،.

(9) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم و تفسيره – دراسة و نقد، عمر بن إبراهيم رضوان،.

(10) دراسة حول القرآن الكريم، محمد حسين الحسيني الجلالي،

(11) الكلام الإسلامي المعاصر، عبدالحسين خسروبناه،

(12) معرفة الوحي دروس معرفية، مصطفى كريمي،

(13) القرآن في الإسلام، الطباطبائي،

(14) الوحي والنبوة في القرآن، جوادي آملي، دار الصفوة، 1421-2001.
(15) مفاهيم القرآن، جعفر السبحاني، مؤسسة الامام الصادق عليه السلام، مطبعة اعتماد.
(16) محاضرات في الإلهيات، جعفر السبحاني،.
(17) البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم الخوئي، المتوفى سنة 1413-1992، دار الزهراء عليها السلام للطباعة، بيروت.
(18) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز 1377هـ، اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية، قدم له عبد العظيم إبراهيم المطعني، الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة : طبعة مزيدة ومحققة 1426هـ - 2005.
(19) الإلهيات على هدى الكتاب والسُّنة والعقل، محمد مكي العاملي،
(20) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج1ص44، المتوفى 588هـ2.
(21) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة الطبع 1971.